

فَصْلٌ

فِي نَسِيْهِ

وَهُوَ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ نَسَبًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَلِنَسِيْهِ مِنَ الشَّرَفِ أَعْلَى ذِرْوَةِ
وَأَعْدَاؤُهُ كَانُوا يَشْهُدُونَ لَهُ بِذَلِكِ؛ وَلِهَذَا شَهَدَهُ بِهِ عَدُوُّهُ إِذْ ذَاكَ أَبُو سَفِيَانَ بَنْ
يَهَيْ مَلِكِ الرُّومِ، فَأَشْرَفَ الْقَوْمَ قَوْمُهُ، وَأَشْرَفَ الْقَبَائِلِ قَبَائِلَهُ، وَأَشْرَفَ الْأَفْخَادِ
فَخِدُهُ.

فَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ بْنُ هَاشِمٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ
كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لَوَيْ بْنِ غَالِبٍ بْنِ فَهْرٍ بْنِ مَالِكٍ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كَنَّاَةَ
بْنِ حُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلَيَّاسَ بْنِ مُضْرَبَ بْنِ نِزَارٍ بْنِ مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ.

إِلَى هَاهُنَا مَعْلُومُ الصِّحَّةِ، مُتَقَّقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّسَابَيْنِ، وَلَا خِلَافٌ فِيهِ الْبَيْتَةُ، وَمَا
فَوْقَ "عَدْنَانَ" مُخْتَلِفٌ فِيهِ، وَلَا خِلَافٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ "عَدْنَانَ" مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الشيخ: يعني: وإنما اختلفوا في الآباء التي بين إسماعيل وبين عدنان: هل
خمسة آباء، أو ستة آباء، أو سبعة آباء، أو أكثر؟ وفي أسمائهم، ولا شك أنَّ
عدنان من ولد إسماعيل، من أحفاد إسماعيل، لكن اختلفوا في عدد الأسماء
فقط التي بين عدنان وبين إسماعيل، وأما جدًا من عبد المطلب إلى
عدنان، فهو موضوع، وبنو هاشم هم أشرف قبائل قريش، وقريش هي أشرف
القبائل، فكان عليه الصلاة والسلام خيارًا من خيار من خيار، كما جاء في هذا
الحديث عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا لما قال قيسر لأبي سفيان: هو فيكم ذو
نسب؟ قال: نعم، هو فينا ذو نسبٍ.

وَإِسْمَاعِيلُ هُوَ الذَّيْجُ عَلَى الْقَوْلِ الصَّوَابِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالثَّابِعِينَ وَمَنْ
بَعْدَهُمْ.

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ إِسْحَاقُ فَبَاطِلٌ بِأَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ وَجْهًا، وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ
ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللَّهُ رُوْحَهُ- يَقُولُ: هَذَا الْقَوْلُ إِنَّمَا هُوَ مُتَلَقَّى عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ،
مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ بِتَصْرِيفِ الْكِتَابِ؛ فَإِنَّ فِيهِ: "إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ بِكُرْهَةٍ"،
وَفِي لُفْظٍ: "وَحِيدَةٌ"، وَلَا يَشُكُّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ هُوَ بِكُرْهَةٍ
أَوْ لَدَهُ.

وَالَّذِي غَرَّ أَصْحَابَ هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ: "اذْبَحْ ابْنَكَ إِسْحَاقَ". قَالَ: وَهَذِهِ الرِّيَادَةُ مِنْ تَخْرِيفِهِمْ وَكَذِبِهِمْ؛ لَا تَنْهَا ثُقَّافَضُ قَوْلُهُ: "اذْبَحْ بْنَكَ وَوَحْيَدَكَ"، وَلِكُنَّ الَّذِي هُوَ حَسَدُتْ بْنَي إِسْمَاعِيلَ عَلَى هَذَا الشَّرَفِ، وَأَحَبُّوا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ، وَأَنْ يَسْوُقُوهُ إِلَيْهِمْ، وَيَحْتَازُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ دُونَ الْعَرَبِ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ فَضْلَهُ لِأَهْلِهِ.

وَكَيْفَ يَسْوُغُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْذِبِيجَ إِسْحَاقُ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَشَّرَ أَمَّا إِسْحَاقَ بِهِ وَبِابْنِهِ يَعْقُوبَ، فَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ لَمَّا أَتَوْهُ بِالْبُشْرَى: لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمًا لَوْطًا ○ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَّحِكْتُ بَشَّرَنَاها بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هُود٢٧١-٧٠]؟! فَمَحَالٌ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِأَنَّهُ يَكُونُ لَهَا وَلَدٌ، ثُمَّ يَأْمُرَ بِذَبْحِهِ.

الشيخ: أنها يكون لها ولد، له ولد؛ لأن إسحاق ولده يعقوب، وقد بشرت بهما جميعاً: بإسحاق، وبابنه يعقوب.

ولَا رَيْبَ أَنَّ يَعْقُوبَ دَأْخِلٌ فِي الْبِشَارَةِ، فَتَتَأْوِلُ الْبِشَارَةُ لِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي الْلَّفْظِ وَاحِدٌ، وَهَذَا ظَاهِرُ الْكَلَامِ وَسِيقَاهُ.

الشيخ: يعني بهذا يعلم أنه لم يأمر بذبحه صغيراً قبل أن يولده؛ لأن الذبح جاء وهو صغير، لما بلغ معه السعي وهو صغير قبل

فَإِنْ قِيلَ: لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمُوهُ لَكَانَ "يَعْقُوبُ" مَجْرُورًا؛ عَطْفًا عَلَى إِسْحَاقَ، فَكَانَتِ الْقِرَاءَةُ: وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هُود٢٧] أَيْ: وَيَعْقُوبُ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ.

الشيخ: أي: "يعقوب" عطفاً على إسحاق بإسحاق ويعقوب يعني، هذا وجه الإيراد يعني.

قِيلَ: لَا يَمْنَعُ الرَّفْعُ أَنْ يَكُونَ يَعْقُوبُ مُبَشِّرًا بِهِ؛ لَا تَنْهَا ثُقَّافَضُ قَوْلُ مَخْصُوصٍ، وَهِيَ أَوَّلُ خَبَرٍ سَارٍ صَادِقٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هُود٢٧] جُمْلَةٌ مُتَضَمِّنَةٌ لِهَذِهِ الْفِيُودِ، فَتَكُونُ بِشَارَةً، بَلْ حَقِيقَةُ الْبِشَارَةِ هِيَ الْجُمْلَةُ الْخَبَرِيَّةُ، وَلَمَّا كَانَتِ الْبِشَارَةُ قَوْلًا كَانَ مَوْضِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ نَصْبًا عَلَى الْحَكَائِيَّةِ بِالْقَوْلِ، كَانَ الْمَعْنَى: وَقُلْنَا لَهَا: مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ، وَالْقَائِلُ إِذَا قَالَ: بَشَّرْتُ فُلَانًا بِقُلُومَ أَخِيهِ وَتَقْلِيهِ فِي أَثْرِهِ، لَمْ يُعْقَلْ مِنْهُ إِلَّا بِشَارَةُ بِالْأَمْرِينِ جَمِيعًا.

الشيخ: ثقله في أثره، مثل: وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هود:71] يعني: داخل البشرة

س:؟

ج: نعم، ثقله في أثره

وَالْفَائِلُ إِذَا قَالَ: بَشَّرْتُ فُلَانًا بِقُدُومِ أَخِيهِ وَثَقَلَهُ فِي أَثْرِهِ، لَمْ يُعْقَلْ مِنْهُ إِلَّا
بِشَارَتُهُ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، هَذَا مِمَّا لَا يَسْتَرِيبُ دُوْفَهُ فِيهِ الْبَلَةُ.

لَمْ يُضْعِفْ الْجَرَّ أَمْرُ أَخَرُ، وَهُوَ ضَعْفُ قَوْلَكَ: مَرَرْتُ بِرَيْدٍ وَمِنْ بَعْدِهِ عَمْرٍو؛
وَلَأَنَّ الْعَاطِفَ يَقُولُ مَقَامَ حَرْفِ الْجَرَّ، فَلَا يُفْصَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَجْرُورِ، كَمَا لَا
يُفْصَلُ بَيْنَ حَرْفِ الْجَرَّ وَالْمَجْرُورِ.

وَيَدْلُلُ عَلَيْهِ أَيْضًا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَابْنِهِ الذَّيْحَ فِي سُورَةِ
"الصَّافَاتِ" قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجَبَينِ ○ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ○ قَدْ
صَدَقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ○ إِنَّ هَذَا لَهُ وَالْبَلَاءُ
الْمُبِينُ ○ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ○ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ○ سَلَامٌ عَلَى
إِبْرَاهِيمَ ○ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ○ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ [الصفات: 103-111]، لَمَّا قَالَ تَعَالَى: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ
الصَّالِحِينَ [الصفات: 112]، فَهَذِهِ بِشَارَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ؛ شُكْرًا عَلَى صَبْرِهِ
عَلَى مَا أُمِرَ بِهِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًا فِي أَنَّ الْمُبَشَّرَ بِهِ غَيْرُ الْأَوَّلِ، بَلْ هُوَ كَالنَّصْرِ
فِيهِ.

الشيخ: لأنَّه قال قبله: فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ [الصفات: 101]، والغلام الحليم هو إسماعيل، ثم جاءت البشرةُ بعده بإسحاق.

فَإِنْ قِيلَ: فَالْبِشَارَةُ التَّانِيَةُ وَقَعَتْ عَلَى تُبُوتِهِ، أَيْ: لَمَّا صَبَرَ الْأَبُ عَلَى مَا أُمِرَ
بِهِ، وَأَسْلَمَ الْوَلَدُ لِأَمْرِ اللَّهِ؛ جَازَاهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَعْطَاهُ النُّبُوَّةَ.

قِيلَ: الْبِشَارَةُ وَقَعَتْ عَلَى الْمَجْمُوعِ: عَلَى ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ، وَأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا؛ وَلَهُذَا
تُصَبِّ "نَبِيًّا" عَلَى الْحَالِ الْمُقَدَّرِ، أَيْ: مُقَدَّرًا تُبُوتُهُ، فَلَا يُمْكِنُ إِخْرَاجُ الْبِشَارَةِ
أَنْ تَقْعَ عَلَى الْأَصْنَلِ، لَمَّا خَصَّ بِالْحَالِ التَّابِعَةِ الْجَارِيَةِ مَجْرَى الْفَضْلَةِ، هَذَا
مُحَالٌ مِنَ الْكَلَامِ، بَلْ إِذَا وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ عَلَى تُبُوتِهِ فَرُؤُوْعُهَا عَلَى وُجُودِهِ أَوْلَى
وَأَحْرَى.

وأيضاً فلاريب أنَّ الذِّبْحَ كَانَ بِمَكَّةَ؛ وَلِذَلِكَ جُعِلَتِ الْقَرَائِبُونَ يَوْمَ النَّحْرِ بِهَا، كَمَا جُعِلَ السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَافَ وَالْمَرْزُوةِ وَرَمْيُ الْحِمَارِ تَذْكِيرًا لِشَانِ إِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ، وَإِقَامَةً لِذِكْرِ اللَّهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هُمَا الْلَّذَانِ كَانَا بِمَكَّةَ دُونَ إِسْحَاقَ وَأُمِّهِ؛ وَلِهَذَا اتَّصَلَ مَكَانُ الذِّبْحِ وَزَمَانُهُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي اشْتَرَكَ فِي بَنَائِهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ، وَكَانَ النَّحْرُ بِمَكَّةَ مِنْ تَمَامِ حَجَّ الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ عَلَى يَدِ إِبْرَاهِيمَ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ رَمَائِنَا وَمَكَانًا، وَلَوْ كَانَ الذِّبْحُ بِالشَّامِ كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَمِنْ تَلَقَّى عَنْهُمْ لَكَانَتِ الْقَرَائِبُونَ وَالنَّحْرُ بِالشَّامِ، لَا بِمَكَّةَ.

وأيضاً فإنَّ الله سُبْحَانَهُ سَمِّيَ الذِّبْحَ حَلِيمًا؛ لِأَنَّهُ لَا أَحْلَمُ مِمَّنْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِلذِّبْحِ طَاعَةً لِرِبِّهِ، وَلَمَّا ذَكَرَ إِسْحَاقَ سَمَاهُ: عَلِيًّا، فَقَالَ تَعَالَى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ ○ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامٌ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ إِلَى أَنْ قَالَ: {قَالُوا لَا تَخْفِ وَبَشِّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيًّّا} [الذاريات: 24-28]، وَهَذَا إِسْحَاقُ بِلَارَيبٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ امْرَأَتِهِ، وَهِيَ الْمُبَشَّرَةُ بِهِ، وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَمِنَ السُّرِّيَّةِ.

وأيضاً فِي أَنَّهُمَا بُشِّرَاهُمَا عَلَى الْكِبْرِ وَالْيَأسِ مِنَ الْوَلَدِ، وَهَذَا بِخَلَافِ إِسْمَاعِيلِ، فَإِنَّهُ وُلِدَ قَبْلَ ذَلِكَ.

وأيضاً فإنَّ الله سُبْحَانَهُ أَجْرَى الْعَادَةَ الْبَشَرِيَّةَ أَنَّ يُكَرِّرَ الْأَوْلَادُ أَحَبَّ إِلَى الْوَالِدِينَ مِمَّنْ بَعْدَهُ، وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ، وَوَهَبَهُ لَهُ، تَعَلَّقَ شُعْبَةُ مِنْ قَلْبِهِ بِمَحَبَّتِهِ، وَالله تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا، وَالْخَلَّةُ مَنْصِبٌ يَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَحْبُوبِ بِالْمَحَبَّةِ، وَأَنَّ لَا يُشَارِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِيهَا، فَلَمَّا أَخَذَ الْوَلَدُ شُعْبَةً مِنْ قَلْبِ الْوَالِدِ جَاءَتْ غَيْرُهُ الْخَلَّةُ شَتَّرَهُمَا مِنْ قَلْبِ الْخَلِيلِ، فَأَمَرَهُ بِذِبْحِ الْمَحْبُوبِ، فَلَمَّا أَفْدَمَ عَلَى ذِبْحِهِ وَكَانَتْ مَحَبَّةُ الله أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْوَلَدِ خَلَصَتِ الْخَلَّةُ حِينَئِذٍ مِنْ شَوَّاْبِ الْمُشَارَكَةِ.

الشيخ: وذلك لأنَّ الخلَّةَ هي أعلى المحبَّة وأكملها، ولما كانت محبَّةُ الولد قد أخذت شعْبَةً من قلب الخليل، كانَ القصةَ في أمره بالذِّبْحِ مما يخلص هذا القلب ويصفيه و يجعله نهايةً من المحبَّةِ لله ؟ ولها آثر حبَّ ربِّه و تعظيمه على حبِّ ولده، و امتنَّ الْأَمْرَ بذبحه طاعةً لله، و تعظيمًا له، والله المستعان.

فَلَمْ يَبْقَ فِي الذِّبْحِ مَصْلَحةٌ؛ إِذْ كَانَتِ الْمَصْلَحةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْعَزْمِ وَتَوْطِينِ النَّفْسِ عَلَيْهِ، فَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ، فَنُسِخَ الْأَمْرُ، وَفُدِيَ الذِّبْحُ، وَصَدَّقَ الْخَلِيلُ الرُّؤْيَا، وَحَصَلَ مُرَادُ الرَّبِّ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْمِتْهَانَ وَالْأَخْتِبَارَ إِنَّمَا حَصَلَ عِنْدَ أَوَّلِ مَوْلُودٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَحْصُلَ فِي الْمَوْلُودِ الْآخَرِ دُونَ الْأَوَّلِ، بَلْ لَمْ يَحْصُلْ عِنْدَ الْمَوْلُودِ الْآخَرِ مِنْ مُزَاحَمَةِ الْخُلَّةِ مَا يَقْتَضِي الْأَمْرُ بِذَبْحِهِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الظَّهُورِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ سَارَةَ امْرَأَةَ الْخَلِيلَ سغَارَتْ مِنْ هَاجِرَ وَابْنِهَا أَشَدَّ الْغَيْرَةِ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ جَارِيَةً، فَلَمَّا وَلَدَتْ إِسْمَاعِيلَ وَأَجَبَهُ أَبُوهُ اشْتَدَتْ غَيْرَةُ سَارَةَ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُبْعَدَ عَنْهَا هَاجِرَ وَابْنَهَا، وَيُسْكِنَهَا فِي أَرْضِ مَكَّةَ؛ لِتَبْرُدَ عَنْ سَارَةَ حَرَارَةُ الْغَيْرَةِ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى وَرَأْفَتِهِ، فَكَيْفَ يَأْمُرُهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهَا وَيَدْعَ ابْنَ الْجَارِيَةِ بِحَالِهِ؟! هَذَا مَعَ رَحْمَةِ اللَّهِ لَهَا وَإِبعادِ الضَّرَرِ عَنْهَا، وَجَبْرِهِ لَهَا، فَكَيْفَ يَأْمُرُ بَعْدَ هَذَا يَذْبَحَ ابْنَهَا دُونَ ابْنِ الْجَارِيَةِ؟! بَلْ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ اقْتَضَتْ أَنْ يَأْمُرَ بِذَبْحِ وَلَدِ السُّرِّيَّةِ، فَحِينَئِذٍ يَرْقُ قَلْبُ السَّيِّدَةِ عَلَيْهَا وَعَلَى وَلَدِهَا، وَتَبَدَّلُ قَسْوَةُ الْغَيْرَةِ رَحْمَةً، وَيَظْهُرُ لَهَا بَرَكَةُ هَذِهِ الْجَارِيَةِ وَوَلَدِهَا، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ بَيْتًا هَذِهِ وَابْنَهَا مِنْهُمْ.

وَلِيُرِيَ عِبَادَهُ جَبْرَهُ بَعْدَ الْكَسْرِ، وَلُطْفَهُ بَعْدَ الشِّدَّةِ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ صَبْرِ هَاجِرَ وَابْنِهَا عَلَى الْبُعْدِ وَالْوَحْدَةِ وَالْغُرْبَةِ وَالتَّسْلِيمِ إِلَى ذَبْحِ الْوَلَدِ الَّتِي إِلَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ مِنْ جَعْلِ آثَارِهِمَا وَمَوَاطِئِ أَفْدَامِهِمَا مَنَاسِكَ لِعِبَادَهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُتَعَبَّدَاتِ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَهَذِهِ سُنْنَتُهُ تَعَالَى فِيمَنْ يُرِيدُ رَفْعَهُ مِنْ خَلْقِهِ: أَنْ يَمْنَ عَلَيْهِ بَعْدَ اسْتِضْنَاعِهِ وَذُلِّهِ وَانْكِسَارِهِ، قَالَ تَعَالَى: وَتُرِيدُ أَنْ تَمْنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْنَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ [القصص: 5]، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَلَنُرْجِعَ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ سِيرَتِهِ س وَهَذِهِ وَأَخْلَاقِهِ: لَا خَلَافٌ أَنَّهُ وُلِدَ سبِجَوفِ مَكَّةَ، وَأَنَّ مَوْلَدَهُ كَانَ عَامَ الْفِيلِ، وَكَانَ أَمْرُ الْفِيلِ تَقْدِمَةً قَدَّمَهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ وَبَيْتِهِ، وَإِلَّا فَأَصْحَابُ الْفِيلِ كَانُوا نَصَارَى، أَهْلَ كِتَابٍ، وَكَانَ بِيَنْهُمْ خَيْرًا مِنْ بَيْنِ أَهْلِ مَكَّةَ إِذْ ذَاكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عُبَادًا أُوْثَانَ، فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ نَصْرًا لَا صُنْعَ لِلْبَشَرِ فِيهِ، إِرْهَاصًا وَتَقْدِمَةً لِلنَّبِيِّ س الَّذِي خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَتَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ.

وَاخْتُلُفَ فِي وَفَاهَةِ أَبِيهِ عَبْدَاللَّهِ: هَلْ ثُوْفَيْ وَرَسُولُ اللَّهِ س حَمَلُ، أَوْ ثُوْفَيْ بَعْدَ وَلَادَتِهِ؟

عَلَى قَوْلَيْنِ:

أَصْحَاهُمَا: أَنَّهُ تُوْفَىٰ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَمْلٌ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ تُوْفَىٰ بَعْدَ وِلَادَتِهِ بِسَبْعَةِ أَشْهُرٍ.

وَلَا خَلَافَ أَنَّ أَمَّهُ مَاتَتْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ "بِالْأَبْوَاءِ" مُنْصَرَفَهَا مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ زِيَارَةِ أَخْوَالِهِ، وَلَمْ يَسْتَكْمِلْ إِذْ ذَاكَ سَبْعَ سِنِينَ.

وَكَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ، وَتُوْفِيَ وَلَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوُ ثَمَانِ سِنِينَ.

الشِّيخُ: وَالْمَعْنَى أَنَّهُ عَاشَ يَتِيمًا مِنْ أَمَّهُ وَأَبِيهِ، عَاشَ يَتِيمًا مِنْ أَمَّهُ وَأَبِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فَأَبُوهُ مَاتَ وَهُوَ حَمْلٌ، وَأَمَّهُ مَاتَتْ وَهُوَ صَغِيرٌ قَبْلَ السَّبْعِ سِنِينَ: إِمَّا خَمْسًا، أَوْ حَوْلَهَا، فَعَاشَ يَتِيمًا مِنْ أَبِيهِ وَأَمَّهُ فِي حَجَرِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، ثُمَّ فِي حَجَرِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَلَمْ يَضُرِّهِ الْيُتُومُ، وَلَا ذَهَابُ الْوَالِدِينِ، بَلْ أَنْبَتَهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا، ثُمَّ أَعْطَاهُ الثُّبُوتَ وَالرِّسَالَةَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَتُوْفِيَ وَلَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوُ ثَمَانِ سِنِينَ، وَقِيلَ: سِتٌّ، وَقِيلَ: عَشْرٌ، ثُمَّ كَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَاسْتَمَرَتْ كَفَالَةُ لَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ تِسْتَيْعَةَ سَنَةً خَرَجَ بِهِ عَمُّهُ إِلَى الشَّامِ، وَقِيلَ: كَانَتْ سِنُّهُ تِسْعَ سِنِينَ.

وَفِي هَذِهِ الْخَرْجَةِ رَأَهُ بَحِيرِي الرَّاهِبُ، وَأَمْرَ عَمَّهُ أَلَا يَقْدَمْ بِهِ إِلَى الشَّامِ؛ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِ، فَبَعَثَهُ عَمُّهُ مَعَ بَعْضِ عِلْمَانِيهِ إِلَى مَكَّةَ.

وَوَقَعَ فِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ: أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ بِلَالًا. وَهُوَ مِنَ الْغَلَطِ الْوَاضِحِ؛ فَإِنَّ بِلَالًا إِذْ ذَاكَ لَعْلَهُ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا، وَإِنْ كَانَ فَلَمْ يَكُنْ مَعَ عَمِّهِ، وَلَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ.

وَذَكَرَ الْبَزَارُ فِي "مُسْنَدِهِ" هَذَا الْحَدِيثَ، وَلَمْ يَقُلْ: وَأَرْسَلَ مَعَهُ عَمُّهُ بِلَالًا، وَلِكِنْ قَالَ: رَجُلًا.

فَلَمَّا بَلَغَ خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً خَرَجَ إِلَى الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ، فَوَصَّلَ إِلَى "بُصْرَى"، ثُمَّ رَجَعَ فَتَرَوَّجَ فَتَرَوَّجَ عَقْبَ رُجُوعِهِ خَدِيجَةُ بْنَتُ خَوْلِيدٍ، وَقِيلَ: تَرَوَّجَهَا وَلَهُ تَلَاثُونَ سَنَةً. وَقِيلَ: إِحدَى وَعِشْرُونَ. وَسَنُّهَا أَرْبَعُونَ، وَهِيَ أَوَّلُ امْرَأَةٍ تَرَوَّجَهَا، وَأَوَّلُ امْرَأَةٍ مَاتَتْ مِنْ نِسَائِهِ، وَلَمْ يَنْكِحْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا، وَأَمْرَهُ جِبْرِيلُ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا.

لَمْ حَبَبَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْخُلُوَةَ وَالثَّعْبَدَ لِرَبِّهِ، وَكَانَ يَخْلُو بِـ"غَارِ حِرَاءِ" يَتَعَبَّدُ فِيهِ
إِلَيْهِ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، وَبُغْضَتْ إِلَيْهِ الْأُوْثَانُ وَدِينُ قَوْمِهِ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ
إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ.

الشيخ: وفي هذا دالة على أنه **خرج في تجارة خديجة**، ثم رجع من الشام
وخطبته على نفسها خديجة، لما بلغها من أمانته وصدقه وحسن تصرفه عليه
الصلاوة والسلام، فأحببته كثيراً، وخطبته إلى نفسها، وتزوجها عليه الصلاة
والسلام وكان ابن خمس وعشرين سنةً، وكانت بنت أربعين.

فدلل ذلك على أنه لا حرج أن يتزوج الشاب الكبير العاقلة التي في سن
الأربعين، ولا حرج في أن يكون سن الزوجين مختلفاً: بأن تكون أصغر منه،
أو يكون أكبر منها، لا حرج في ذلك، بخلاف ما يظنه أهل هذا الزمان من
دعاة الفساد ودعاة الشر الذين يدعون إلى أن يكون سن الزوج وسن الزوجة
سواء سواء، ويعيرون من زاد سنها على زوجته، أو زاد سنها عليه، هذا كله
من الباطل، ومن الخرافات، ومن دسائس الأعداء؛ حتى يقدحوا فيما مضى
من فعل النبي ﷺ، وفعل الصحابة؛ فقد تزوج خديجة وهو ابن خمس
وعشرين، وهي بنت أربعين، وتزوج عائشة وهو ابن ثلات وخمسين، وهي
بنت تسعة سنين، بنى عليها وهي بنت تسعة سنين، وعقد عليها وهي بنت سنتين،
أو سبع، وليس في هذا محظوظ ولا نقص، وصار أمر الصحابة في ذلك
مشهوراً.

الحاصل أنه لا حرج في أن يتزوج الكبير الصغيرة، والصغرى الكبير، أو
المساوي، لا حرج في هذا، إنما هو التراضي: إذا رضيت به ورضي بها فلا
حرج في ذلك، ولا نقص، ولا عيب، فكم من كبير خير من صغير، وكم من
صغرى خير من كبيرة، وكم من كبيرة خير من صغيرة، هذا يتقاوت ويختلف
على حسب ما أعطي الجميع من الديانة والرشاد والاستقامة وحسن الخلق.

.....
فَلَمَّا كَمْلَ لَهُ أَرْبَعُونَ أَشْرَقَ عَلَيْهِ نُورُ النُّبُوَّةِ، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرِسَالَتِهِ، وَبَعَثَهُ
إِلَى خَلْقِهِ، وَاحْتَصَرَ بِكَرَامَتِهِ، وَجَعَلَهُ أَمِينَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ مَبْعَثَهُ ﷺ كَانَ يَوْمَ الْاثْتَيْنِ، وَاحْتَلَفَ فِي شَهْرِ الْمَبْعَثِ:

فَقِيلَ: لِثَمَانِ مَضَيْنَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، سَنَةَ أَحَدَى وَأَرْبَعِينَ مِنْ عَامِ الْفَيْلِ. هَذَا
قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ.

وَقِيلَ: بَلْ كَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ. وَاحْتَاجَ هُؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ [البقرة: 185]، قَالُوا: أَوَّلُ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنُبُوتِهِ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ. وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يَحْيَى الصَّرْصَرِيُّ، حَيْثُ يَقُولُ فِي ثُوْنَيْتَهُ:

شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي
رَمَضَانَ
فَأَشْرَقَ
وَأَثْلَثُ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ

وَالْأَوَّلُونَ قَالُوا: إِنَّمَا كَانَ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ، ثُمَّ أَنْزَلَ مُنْجَماً بِحَسْبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ. أَيْ: فِي شَأْنٍ وَتَعْظِيمِهِ وَفَرْضِ صَوْمِهِ.

وَقِيلَ: كَانَ ابْتِداءُ الْمَبْعَثِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ.

وَكَمَلَ اللَّهُ مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ مَرَاتِبَ عَدِيدَةَ:

إِحْدَاهَا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ: وَكَانَتْ مَبْدَأً وَحْدِهِ ﷺ، وَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ.

الشيخ: الأظهر قول من قال: إنها في رمضان، هذا هو الأظهر، أظهر من قول من قال: في ربيع الأول؛ لأنَّه ﷺ قال: إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَاهُ فَقَالَ: أَفَرَا، هذَا أَوْلَى مَا جَاءَهُ مِنِ الْوَحْيِ، فَقَرَأَ سُورَةً "اقْرَا" -أولها- وَكَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ، هذَا هُوَ الْأَصْلُ، وَهُوَ الْأَرْجُحُ.

أَمَا القَوْلُ أَنَّهَا إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ، مَحْلُ نَظَرٍ، كَمَا قَالَ: حِمَ ○ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ ○ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ [الدخان: 1-3]، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [القدر: 1]، لِمَنْ هُنَاكَ أَصْرَحُ مِنْ هَذَا.

س:؟

ج: بَلَى، كَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، لَكِنْ لَيْسَ هِيَ الْمَرَادَةُ، وَلَيْسَ هِيَ، لَكِنْ كَانَتْ مَبَادِئُ خَيْرٍ، وَمَبَادِئُ إِشَارَةٍ.

س:؟

ج: اللَّهُ أَعْلَمُ، تَحْدِيدُهَا اللَّهُ أَعْلَمُ.

الطالب:

الشيخ: هذا الذي أحظى، هذا حكاية عمر بن قالوا: في ربيع أول، قالوا: الوحي في ربيع أول، وأنزل القرآن إلى بيت العزة في رمضان، أليس بعده؟

الطالب:

الشيخ:

الثانية: ما كان يُلقيه الملائكة في روعيه وقلبه من غير أن يرآه، كما قال النبي ﷺ: إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكِمَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاجْمِلُوا فِي الطلب.

الشيخ: حتى تستكملي رزقها وأجلها، ما عندك؟ المعروف في الحديث: "رزقها وأجلها"، وروعي يعني: قلبي، الروع: القلب.

س:؟

ج: لا، يلقى في قلبه.

فاتَّقُوا اللَّهَ وَاجْمِلُوا فِي الطلبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَنْالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ.

الشيخ: أليس قال المحسني عليه؟

الطالب: حديث صحيح بشواهد: أخرجه أبو نعيم في "الحلية" من حديث أبي أمامة، وفي سنته، وهو ضعيف، وبباقي رجاله ثقات، وأورده الهيثمي في "المجمع"، ونسبه للطبراني في "الكبير"، وأعلمه

الثالثة: أَنَّهُ كَانَ يَمْتَلِّئُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ رُجَالًا فَيُخَاطِبُهُ حَتَّى يَعْيَى عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصَّحَابَةُ أَحْيَانًا.

الشيخ: في قصة سؤاله عن الإسلام والإيمان رأى الصحابة.

الرابعة: أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلَصَلَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيْهِ، فَيَتَأَبَّسُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى إِنَّ جَيْنَاهُ لَيَتَقَصَّدُ عَرْقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَحَتَّى إِنَّ رَاحَاتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، وَلَقَدْ جَاءَ الْوَحْيُ مَرَّةً كَذَلِكَ وَفَخِذَهُ عَلَى فَخِذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَقَلَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى كَادَتْ تَرُضُّهَا.

الخامسة: أَنَّهُ يَرَى الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَيُوْحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُوْحِيَهُ، وَهَذَا وَقَعَ لَهُ مَرَّتَيْنِ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْجَمِّ.

السادسة: مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ وَهُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ لِيَلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

السادسة: كَلَامُ اللَّهِ لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةً مَلَكٌ، كَمَا كَلَمَ اللَّهُ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ ثَالِثَةُ لِمُوسَى قَطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَتَبُوتُهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ هُوَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ.

الشيخ: يعني أنَّ الله كَلَمَهُ قال: قد أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي.

.....

السادسة: مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ وَهُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ لِيَلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

السادسة: كَلَامُ اللَّهِ لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةً مَلَكٌ.

الشيخ: كأنَّ مُرادَ المُؤْلِفِ رَحْمَهُ اللَّهُ أَنَّ مَا حَصَلَ فِي الإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ نُوعٌ وَحْيٌ، وَنُوعٌ كَلَامٌ.

نُوعٌ وَحْيٌ مِنْ طَرِيقِ الْمَلَكِ، أَوْ وَحْيٌ وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ دُونِ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الرَّبِّ.

والنُّوعُ الثَّانِي: مَا سَمِعَهُ بِأَذْنِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَكُونُ لَا مُنَافَاةً، لَعَلَّ بَعْضَ مَا حَصَلَ فِي الْمَعْرَاجِ كَانَ وَحْيًا، وَبَعْضَهُ كَانَ كَلَامًا، فَالْأُولَى حِينَ فَرَضَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ خَمْسِينَ، ثُمَّ خَمْسَ وَأَرْبَعينَ، إِلَى آخرِهِ، كَانَ مِنْ طَرِيقِ الْمَلَكِ جَبَرَائِيلَ، ثُمَّ لَمَّا اسْتَقْرَتِ إِلَى خَمْسٍ أَوْحَى اللَّهُ كَلَامًا، كَلَمَهُ كَلَامًا قَالَ: هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيْضَتِي، وَخَفَّتُ عَنْ عَبَادِي.

.....

وَقَدْ زَادَ بَعْضُهُمْ مَرْتَبَةً ثَامِنَةً، وَهِيَ تَكْلِيمُ اللَّهِ لَهُ كِفَاحًا مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ، وَهَذَا عَلَى مَذْهَبِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ رَأَى رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَهِيَ مَسْأَلَةٌ خِلَافٌ بَيْنَ السَّالِفِ وَالْخَلِفِ، وَإِنْ كَانَ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ -بَلْ كُلُّهُمْ- مَعَ عَائِشَةَ، كَمَا حَكَاهُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ الدَّارِمِيِّ إِجْمَاعًا لِلصَّحَابَةِ.

الشيخ: وهذا هو الصواب: أنه لم ير ربّه، وإنما كلامه من وراء حجابٍ؛ ولهذا قال: رأيْتُ نوراً، وفي اللَّفْظِ الْآخِرِ: نوراً أَنَّى أَرَاهُ، ورواه مسلم رحمه الله، وقال أيضًا: واعلموا أنه لن يرى أحدٌ ربّه حتى يموت رواه مسلم أيضًا.

وهذا هو الصواب: فلم ير أحدٌ ربّه في هذه الدنيا: لا موسى، ولا محمد، ولا غيرهما، إنما الرؤيا اذْخُرت في الآخرة؛ لأنَّ الرؤيا نعيم عظيم، والدنيا ليست دار النعيم، ولكنها دار الامتحان والقدر، فاذْخُر الله الرؤيا لدار الكرامة، دار النعيم في الآخرة؛ ولهذا في حديث صُهيب: فَمَا أَعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِم مِّنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ. أيش المرتبة الأولى؟

الطالب: وَكَمَّلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ مَرَاتِبَ عَدِيدَةٍ:

إحداها: الرؤيا الصادقة.

الشيخ: لأنَّ رؤيا الأنبياء وحُّيٌّ كما تقدم، لكن هذه الرؤيا قبل أن يكون نبِيًّا، فصارت يعني - يعني - رؤيا صادقة، مثلما قالت عائشة: "لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"، توطئة.

الطالب:

الشيخ: كان مولى عائشة ذكره يُصلِّي بها من المصحف في الليل في رمضان رضي الله عنها وأرضها.

فصل

في ختانه ﷺ

وقد اختلف فيه على ثلاثة أقوالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ وُلِدَ مُخْتُونًا مَسْرُورًا، وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ لَا يَصْحُحُ، ذَكَرَهُ أَبُو الفرج ابْنُ الجُوْزِيِّ فِي "المَوْضُوعَاتِ"، وَلَيْسَ فِيهِ حَدِيثٌ ثَابِثٌ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ حَوَاصِهِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُوَلَّدُ مُخْتُونًا.

وقال الميموني: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: مَسْأَلَةُ سُلْطُتِ عَنْهَا: خَتَانُ خَتَنَ صَبِيًّا فَلَمْ يَسْتَقْصِ؟ قَالَ: إِذَا كَانَ الْخَتَانُ جَاءَ زَنْصَفَ الْحَشَفَةِ إِلَى فَوْقِ، فَلَا يُعِيدُ؛ لِأَنَّ الْحَشَفَةَ تَغْلِظُ، وَكُلُّمَا غَلَظَتْ ارْتَقَعَ الْخَتَانُ. فَمَمَّا إِذَا كَانَ الْخَتَانُ دُونَ النَّصْفِ فَكُنْتُ أَرَى أَنْ يُعِيدَ.

فُلْتُ: فَإِنَّ الْإِعَاذَةَ شَدِيدَةٌ جِدًّا، وَقَدْ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعَاذَةِ؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي. ثُمَّ قَالَ لِي: فَإِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا وُلْدَهُ ابْنٌ مَخْتُونٌ، فَاغْتَمَ لِذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا، فَقُلْتُ لَهُ: إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ كَفَاكَ الْمُؤْنَةَ فَمَا عَمِّكَ بِهَذَا؟ أَنْتَهَى.

الشيخ: وهذا مثلما قال المؤلف: أنه ولد مختوناً مسروراً، ليس ب صحيحٍ، وليس ثابتاً، بل قد أورده ابن الجوزي في "الموضوعات"، وليس هذا من خصائصه ﷺ؛ فإنَّ بعض الناس بعده وقبله يُولَد مختوناً، يعني: ليس له قلفة، يُولَد ليس له قلفة تحتاج إلى قطع، فهو هذه المسائل ليست من الخصائص، لو فرض أنه صَحَّ الحديث ليس من الخصائص، فإذا ولد الصبي وقلفته مرتفعة، ما في حاجة إلى قطع، فلا حاجة إلى القطع.

وَحَدَّثَنِي صَاحِبُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَثْمَانَ الْخَلِيلِيُّ الْمُحَدِّثُ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ أَنَّهُ وُلِدَ كَذَلِكَ، وَأَنَّ أَهْلَهُ لَمْ يَخْتِنُوهُ، وَالْأَسْأَرُ يَقُولُونَ لِمَنْ وُلِدَ كَذَلِكَ: خَتَّنَهُ الْقَمْرُ، وَهَذَا مِنْ حُرَافَاتِهِمْ.

الشيخ: نعم، قولهم: "ختنه القمر" هذا من الخرافات، والقمر ليس له تصرفٌ في شيءٍ.

القول الثاني: أَنَّهُ خُتِنَ ﷺ يَوْمَ شَقَّ قَلْبَهُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ظِنْرِهِ حَلِيمَةَ.

القول الثالث: أَنَّ جَدَّهُ عَبْدَ الْمَطْلَبِ خَتَّنَهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَصَنَعَ لَهُ مَأْدِبَةً، وَسَمَّاهُ مُحَمَّداً.

قَالَ أَبُو عُمَرَ أَبْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَفِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثٌ مُسْنَدٌ غَرِيبٌ: خَتَّنَاهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَحْمَدَ: خَتَّنَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى: خَتَّنَاهُ يَحْيَى بْنُ أَيُوبَ الْعَالَفَ: خَتَّنَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبْيِ السَّرِّيِّ الْعَسْقَلَانِيِّ: خَتَّنَاهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ عَطَاءِ الْخَرَاسَانِيِّ، عَنْ عَكْرَمَةَ، عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبَ خَتَنَ النِّبِيَّ ﷺ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَجَعَلَ لَهُ مَأْدِبَةً، وَسَمَّاهُ مُحَمَّداً.

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَيُوبَ: طَلَبْتُ هَذَا الْحَدِيثَ فَلَمْ أَجِدْهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ مِمَّنْ لَقِيَتْهُ إِلَّا عِنْدَ أَبْنِ أَبْيِ السَّرِّيِّ.

وَقَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَاضِلَيْنِ: صَنَفَ أَحَدُهُمَا مُصَنَّفًا فِي أَنَّهُ وُلِدَ مَخْتُونًا، وَأَجْلَبَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ التِّي لَا خِطَامَ لَهَا وَلَا زَمَامَ، وَهُوَ كَمالُ الدِّينِ أَبْنِ طَلَحةَ، فَنَقَضَهُ عَلَيْهِ كَمالُ الدِّينِ أَبْنِ العَدِيمِ، وَبَيْنَ فِيهِ أَنَّهُ خُتِنَ

عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ، وَكَانَ عُمُومُ هَذِهِ السُّنَّةِ لِلْعَرَبِ قَاطِبَةً مُغْنِيًّا عَنْ نَقْلٍ مُعَيْنٍ فِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشيخ: مقصوده أنَّ هذا كان معروفاً عند العرب، ليس الختان مجهولاً عندهم، بل هو معروفٌ عندهم الختان، يختنون، فليس يحتاج إلى نقلٍ، فهو عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ ختن كما يختن غيره من العرب، كان في حضرة جدّه عبد المطلب، فهو ختن كما ختن الناس؛ ولهذا رُوي أنه ختنه في يوم سابعه، وجعل له مأدبة طعام.

فَصْلٌ

فِي أُمَّهَاتِهِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ الَّتِي أَرْضَعْنَهُ

فَمِنْهُنَّ ثُوبِيَّةٌ مُوْلَةُ أَبِي لَهَبٍ، أَرْضَعَتْهُ أَيَّامًا، وَأَرْضَعَتْ مَعَهُ أَبَا سَلَمَةَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَدْلَ الْأَسْدِ الْمَخْرُومِيَّ بْنَ ابْنَهَا مَسْرُوحَ، وَأَرْضَعَتْ مَعَهُمَا عَمَّةُ حَمْرَةُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِّبِ. وَاخْتَلَفَ فِي إِسْلَامِهَا، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ بْنَ ابْنَهَا عَبْدَ اللَّهِ، أَخِي أَنِيسَةٍ وَجَدَامَةٍ -وَهِيَ الشَّيْمَاءُ- أُولَادُ الْحَارِثَ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّزِ بْنِ رَفَاعَةِ السَّعْدِيِّ، وَاخْتَلَفَ فِي إِسْلَامِ أَبْوَيْهِ مِنْ الرَّضَاعَةِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَرْضَعَتْ مَعَهُ ابْنَ عَمِّهِ: أَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِّبِ، وَكَانَ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَسْلَمَ عَامَ الفُتحِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ عَمَّةُ حَمْرَةُ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ بْنِ بَكْرٍ، فَأَرْضَعَتْ أُمَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَ أُمِّهِ حَلِيمَةَ، فَكَانَ حَمْرَةُ رَضِيعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جِهَتِيْنِ: مِنْ جِهَةِ ثُوبِيَّةٍ، وَمِنْ جِهَةِ السَّعْدِيَّةِ.

فَصْلٌ

فِي حَوَاضِنِهِ

فَمِنْهُنَّ أُمَّهُ آمِنَةُ بَنْتُ وَهْبٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زَهْرَةِ بْنِ كَلَابٍ.

وَمِنْهُنَّ ثُوبِيَّةُ، وَحَلِيمَةُ، وَالشَّيْمَاءُ ابْنَتُهَا، وَهِيَ أُخْتُهُ مِنْ الرَّضَاعَةِ، كَانَتْ تَحْضُنُهُ مَعَ أُمَّهَا، وَهِيَ الَّتِي قَدِمَتْ عَلَيْهِ فِي وَفْدِ هَوَازِنَ، فَبَسَطَ لَهَا رَدَاءً، وَأَجْلَسَهَا عَلَيْهِ؛ رَعَايَةً لِحَقِّهَا.

وَمِنْهُنَّ الْفَاضِلَةُ الْجَلِيلَةُ: أُمُّ أَيْمَنَ، بِرَكَةُ الْجَبَشِيَّةِ، وَكَانَ وَرَثَهَا مِنْ أَبِيهِ، وَكَانَتْ دَائِيَّةً، وَرَوَّجَهَا مِنْ حِبْرِهِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فَوَلَدَتْ لَهُ أَسَمَّةً، وَهِيَ الَّتِي دَخَلَ

عَلَيْهَا أَبُو بَكْرٌ وَعَمْرَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: يَا أُمَّ اِيمَانَ، مَا يُبَكِّيكِ؟ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ! قَالَتْ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ، وَإِنَّمَا أَبْكِي لِانْقِطَاعِ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَبَكَيَا.

الشيخ: يعني: تقول لهما: إني لا أبكي من أجل عدم علمي بأنّ ما عند الله خيرٌ
لرسول الله، أنا أعلم يقينًا أنّ ما عند الله خيرٌ لرسول الله عليه الصلاة والسلام،
ولكنني أبكي لانقطاع الوحي من السَّماء، فهو ينزل عليه الوحي في حياته ﷺ
بالأوامر والتَّواهِي والتيسير وغير ذلك، فلما تُوفي ﷺ انقطع الوحي، فأنا أبكي
لهذا القطع، فهيجّتها على البكاء فبكيا رضي الله عنهم.

س:.....؟

ج: كانت خادمةً له، تحضنه وتحمه.

سے

ج: كأنه جُوزي على هذا، كأنه على جُوزي على هذا الشيء من الراحة بسبب عقده ثوابية التي أرضعت النبي ﷺ.

سے : (

الطالب: باب وَأَمْهَاتُكُمُ الَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ [النساء:23]، قال عروة: وثوبية مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر خيبة وسوء حال.

الشيخ: يعني: بسوء حال، نسأل الله العافية.

الطالب: قال له: مَاذَا لَقِيْتَ؟ قال أبُو لَهَبٍ: مَا لَقِيْتُ بَعْدَكُمْ رَخَاءً، غَيْرَ أَنِّي سَقِيْتُ بِهَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى النَّقْرَةِ الَّتِي تَحْتَ إِبْهَامِهِ لِعَتَاقِهِ ثُوبِيَّة.

الشيخ: الله المستعان، هذا من فضل الله جلَّ وعلا بسبب أن ثوبية أرضعت النبيَّ ﷺ، وهو اعتقها، فكان هذا نوعاً من الجزاء اليسير الذي سُقِي به شربةً يسيرةً بسبب هذا، والله المستعان.

س:.....؟

ج: يُروى هذا، والله المستعان.

فَصْلٌ

فِي مَبْعَثِهِ ﷺ وَأَوَّلِ مَا نَزَّلَ عَلَيْهِ

.....

الشيخ: يُجازون عليها في الدنيا، أعمالهم الصالحة يُجازون عليها في الدنيا، فإذا أفضوا إلى الآخرة ليس لهم شيء، نسأل الله العافية، كما قال تعالى: وَقَدِمَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان: 23]، نسأل الله السلامة، قد يُستثنى منها، إذا ثبت شيءٌ يكون مستثنى، إذا ثبت شيءٌ من هذا يكون شيئاً مستثنى، وإلا فهم متلماً جاء في حديث أنسٍ: أنَّ الكافر إذا عمل حسنةً أطعنه بها طعمه في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يجد شيئاً، نسأل الله العافية، وهكذا قوله جلَّ وعلا: وَلَوْ أَشْرَكُوا الْخَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 88]، وَقَدِمَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان: 23]، نسأل الله العافية، فإن ثبت شيءٌ مما قد يقع من التحريف وهذا مستثنى متلماً يُروى في هذا، والله المستعان، ومثلما جرى لأبي طالب.

فَصْلٌ

فِي مَبْعَثِهِ ﷺ وَأَوَّلِ مَا نَزَّلَ عَلَيْهِ

بَعْثَةُ اللَّهِ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ، وَهِيَ سِنُّ الْكَمَالِ.

قيل: ولها ثُبُّت الرُّسُلُ.

وَأَمَّا مَا يُذَكَّرُ عَنِ الْمَسِيحِ: أَنَّهُ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ وَلَهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، فَهَذَا لَا يُعْرَفُ لَهُ أَثْرٌ مُتَّصِلٌ يَحْبُّ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ.

وَأَوَّلُ مَا بُدَئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ: الرُّؤْيَا، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مُثْلَ قَلْقَ الصُّبْحِ.

قيل: وَكَانَ ذَلِكَ سِنَّةً أَشْهُرٍ، وَمُدَّةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَهَذِهِ الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ سِنَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالنُّبُوَّةِ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ بِغَارِ حِرَاءِ، وَكَانَ يُحِبُّ الْخَلْوَةَ فِيهِ، فَأَوَّلُ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ: افْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [العلق: 1]. هَذَا قَوْلُ عائشةَ وَالْجُمْهُورِ.

وَقَالَ جَابِرٌ: أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.

وَالصَّحِّيحُ قَوْلُ عائشةَ لِوُجُوهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ صَرِيحٍ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ قَبْلَ ذَلِكَ شَيْئًا.

الثَّانِي: الْأَمْرُ بِالْفِرَاءَ فِي التَّرْتِيبِ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْإِنْذَارِ، فَإِنَّهُ إِذَا قَرَأَ فِي نَفْسِهِ إِنْذَارًا بِمَا قَرَأَهُ، فَأَمْرَهُ بِالْفِرَاءِ أَوْ لَا، ثُمَّ بِالْإِنْذَارِ بِمَا قَرَأَهُ ثَانِيًّا.

الثَّالِثُ: أَنَّ حَدِيثَ جَابِرٍ وَقَوْلَهُ: أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [المدثر: 1] قَوْلُ جَابِرٍ، وَعائشةَ أَخْبَرَتْ عَنْ خَبْرِهِ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ.

الرَّابِعُ: أَنَّ حَدِيثَ جَابِرِ الَّذِي احْتَجَ بِهِ صَرِيحٍ فِي أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ نُزُولُ الْمَلَكِ عَلَيْهِ أَوْ لَا قَبْلَ نُزُولِهِ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، فَإِنَّهُ قَالَ: فَرَغَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمْلُونِي دَيْرُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَكَ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، فَدَلَّ حَدِيثُ جَابِرٍ عَلَى تَأْخِيرِ نُزُولِهِ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، وَالْحُجَّةُ فِي رَوَايَتِهِ، لَا فِي رَأْيِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشيخ: والمعنى أنه أول شيءٍ بعد الفترة، بعد اقرأ انقطع الوحي، ثم أنزل الله: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، فهذا هو الجمع بين الروايتين، فجابر روى نزول سورة المدثر بعد نزول سورة "اقرأ"، والله أنزل سورة "اقرأ" أولاً، ثم المدثر، فلا منافاة، أول شيءٍ في الإنزال هو "اقرأ"، ثم أول شيءٍ بعد الفترة -فترة الوحي- هو المدثر.

والظاهر أنَّ هذا هو مراد جابر فيما نقله، وهو مراد من قال ذلك عند التَّحقيق؛ لأنَّ الحديث صريح في أنَّ أول ما أنزل سورة "اقرأ"، والفترة التي بينهما - بين "اقرأ" والمدثر - فترة فتر فيهما الوحي، فصح أن يقال: أول ما نزل عليه، يعني: بعد الفترة.

فَصْلٌ

فِي تَرْتِيبِ الدَّعْوَةِ

وَلَهَا مَرَاتِبُ:

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: النُّبُوَّةُ.

الثانية: إنذار عشيرته الأقربين.

الثالثة: إنذار قومه.

الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من تذير من قلبه، وهم العرب قاطبة.

الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

فصلٌ

وأقام صَلَوة بعده ذلك ثلاثة سنين يدعوا إلى الله سبحانه مُستَحْفِيًّا.

الشيخ: وإنذاره قومه وإنذاره عشيرته بعض إنذاره للناس، الله قال: وإنذر الناس [إبراهيم: 44]، يَا أَيُّهَا الْمُذَكَّرُ ۝ قُمْ فَأَذْرِ [المدثر: 1-2]، والمعنى: ينذر الأمة كلها، ولكنه سبحانه أمره أن يخصن عشيرته وقومه بمزيد عناء؛ لكونهم ما أتاهم التذير؛ ولكنهم أولى الناس به، وأخص الناس به، فوجب أن يعنى بهم أكثر؛ لأنَّ بهم تقوم الدعوة، وتبلغ الدعوة إلى الأقصى من الناس، فما هم بهم صَلَوة، وإنذار عشيرته، وأبدى وأعاد، وإنذار قومه، وإنذار الناس جميعاً من جهة الرسل، وأرسله إلى الرؤساء والملوك ليبلغهم رسالات الله، ولি�أمرهم بما أمر الله به، وينهاهم عمّا نهى الله عنه عليه الصلاة والسلام.

ثمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ: فاصْدَعْ بِمَا ثُوِّمْ وَأَغْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [الحجر: 94]، فَأَعْلَمَ صَلَوة بِالدَّعْوَةِ، وَجَاهَرَ قَوْمَهُ بِالْعَدَّاوةِ، وَاشْتَدَّ الْأَذَى عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَذْنَ اللَّهُ لَهُمْ بِالْهِجْرَتِينَ.

فصلٌ

في أسمائه صَلَوة

وكلها انعوت، ليست أعلاماً مخصوصة لمجرد التعريف، بل أسماء متشتقة من صفات قائمية به توجب له المدح والكمال.

فمنها محمد، وهو أشهرها، وبه سمي في التوراة صريحاً، كما بيّناه بالبرهان الواضح في كتاب "جلاء الأفهام" في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، وهو كتاب فرد في معناه، لم يسبق إلى مثله في كثرة فوائده وغرائزها، بينما فيه الأحاديث الواردة في الصلاة والسلام عليه، وصححها من حسنها ومغلوتها، وبيناماً في مغلوتها من العلل بياناً شافياً، ثم أسرار هذا الدعاء وشرفه وما اشتتمل عليه من الحكيم والفوائد، ثم مواطن الصلاة عليها ومحالها،

ثُمَّ الْكَلَامُ فِي مَقْدَارِ الْوَاجِبِ مِنْهَا، وَالْخِتَافَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيهِ، وَتَرْجِيحُ الرَّاجِحِ، وَتَرْزِيفُ الْمُرَيْفِ، وَمَخْبُرُ الْكِتَابِ فَوْقَ وَصْفِهِ.

الشيخ: "مخبر الكتاب" لعلها من الاخبار، يعني: ما يخبر به، ويحمل "مخبر" وهو ما في جوفه، لكن "مخبر" أقرب إلى "مخبر".

وَالْمَقْسُودُ أَنَّ اسْمَهُ مُحَمَّدٌ فِي التَّوْرَاةِ صَرِيقًا بِمَا يُوَافِقُ عَلَيْهِ كُلُّ عَالَمٍ مِنْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ.

الشيخ: كما أنَّ أسماء الله نعوت داللة على المعاني العظيمة، فهكذا أسماء نبيه محمد نعوت، هي أسماء، وهي نعوت داللة على معنى وفق الله أهلة لتسميته محمداً؛ لما يشتمل عليه من الخصال الحميدة في أخلاقه وسيرته وأعماله قبل النبوة وبعدها عليه الصلاة والسلام، وهكذا أحمد كما ي يأتي، وهكذا الحasher، والماحي، ونبي التوبة، ونبي الملhma.

وَمِنْهَا أَحَمْدُ، وَهُوَ الْإِسْمُ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ الْمَسِيحُ؛ لِسِرِّ ذَكْرِنَاهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ.

وَمِنْهَا: الْمُتَوَكِّلُ، وَمِنْهَا الْمَاحِيُّ، وَالْحَاسِرُ، وَالْعَاقِبُ، وَالْمُقْفَى، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ، وَالْفَاتِحُ، وَالْأَمِينُ.

وَيُلْحَقُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ: الشَّاهِدُ، وَالْمُبَشِّرُ، وَالْبَشِيرُ، وَالْتَّذِيرُ، وَالْقَاسِمُ، وَالضَّحْوُكُ، وَالْقَتَالُ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَالسِّرَاجُ الْمُنِيرُ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَصَاحِبُ لِرَوَاءِ الْحَمْدِ، وَصَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ؛ لِأَنَّ أَسْمَاءَ إِذَا كَانَتْ أَوْصَافَ مَذْحَفَةٍ مِنْ كُلِّ وَصْفٍ اسْمٌ، لَكِنْ يَتَبَعِي أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْوَصْفِ الْمُخَاتِصِ بِهِ أَوِ الْعَالِبِ عَلَيْهِ وَيُشَتَّقُ لَهُ مِنْهُ اسْمٌ، وَبَيْنَ الْوَصْفِ الْمُشَتَّرِ فَلَا يَكُونُ لَهُ مِنْهُ اسْمٌ يَخْصُّهُ.

س: قوله "القتال"؟

ج: الضَّحْوُكُ مُعَوْنَى أُولِيَائِهِ وَأَتَبَاعِهِ، الْقَتَالُ لِأَعْدَائِهِ الَّذِينَ خَاصَّمُوا وَعَانَدُوا الْحَقَّ، كَمَا قَاتَلُوهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ، وَيَوْمَ بَدْرٍ، وَيَوْمَ الْأَحْزَابِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَقَالَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: سَمِّيَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحَمْدُ، وَأَنَا الْمَاحِيُّ الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاسِرُ الَّذِي يُحْسِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيِّيَ، وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ.

وَأَسْمَاؤُهُ ﷺ نَوْعَانُ:

أَحَدُهُمَا: خَاصٌ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ: كَمُحَمَّدٍ، وَأَحْمَدَ، وَالْعَاقِبُ،
وَالْحَاسِرُ، وَالْمُقْقِي، وَنَبِيُّ الْمُلْحَمَةِ.

وَالثَّانِي: مَا يُشَارِكُهُ فِي مَعْنَاهُ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ، وَلِكُنْ لَهُ مِنْهُ كَمَالُهُ، فَهُوَ
مُخْتَصٌ بِكَمَالِهِ دُونَ أَصْلِهِ: كَرَسُولُ اللهِ، وَنَبِيُّهُ، وَعَبْدِهِ، وَالشَّاهِدُ، وَالْمُبَشِّرُ،
وَالذَّيْرُ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ.

وَأَمَّا إِنْ جَعَلَ لَهُ مِنْ كُلِّ وَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِهِ اسْمُ تَجَاوَرَتْ أَسْمَاؤُهُ الْمِتَّنِينِ:
كَالصَّادِقُ، وَالْمَصْدُوقُ، وَالرَّوْفُ الرَّحِيمُ، إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَفِي هَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ اللَّهَ الْأَلْفَ اسْمٌ، وَلِلنَّبِيِّ ﷺ الْأَلْفُ اسْمٌ. قَالَهُ أَبُو
الْخَطَابِ ابْنُ دِحْيَةَ، وَمَقْصُودُهُ الْأَوْصَافُ.

الشيخ: ترجم له؟

الطالب: هو عمر بن الحسن بن علي بن محمد، أبو الخطاب ابن دحية الكلبي،
أديب، مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل سبطة بالأندلس، ولد قضاء دائنية،
ورحل إلى مراكش والشام والعراق وخراسان، واستقر بمصر. وكان كثير
الواقعة في العلماء والأئمة، فأعرض بعض معاصريه عن كلامه، وكذبوا في
انتسابه إلى "دحية"، وقالوا: إن دحية الكلبي لم يعقب. وهجاه ابن عزى،
وتوفي بالقاهرة، من تصانيفه: "المطرب من أشعار أهل المغرب"، و"الآيات
البينات"، و"نهاية السول في خصائص الرسول"، و"التوير في مولد السراج
المنير" وغيرها.

فصلٌ

في شرح معاني أسمائه ﷺ

أَمَّا مُحَمَّدٌ: فَهُوَ اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ حَمَدَ فَهُوَ مُحَمَّدٌ؛ إِذَا كَانَ كَثِيرَ الْخِصَالِ الَّتِي
يُحَمَّدُ عَلَيْهَا؛ وَلِذَلِكَ كَانَ أَبْلَغُ مِنْ مَحْمُودٍ، فَإِنَّ مَحْمُودًا مِنَ الْتَّلَاثِيِّ الْمُجَرَّدِ،
وَمُحَمَّدًا مِنَ الْمُضَاعِفِ لِلْمُبَالَغَةِ، فَهُوَ الَّذِي يُحَمَّدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُحَمَّدُ غَيْرُهُ مِنَ
الْبَشَرِ.

الشيخ: ولهذا كان محمدًا، نعم.

وَلِذَلِكَ كَانَ أَبْلَغَ مِنْ مَحْمُودٍ؛ فَإِنَّ مَحْمُودًا مِنَ الْتَّلَاثِيِّ الْمُجَرَّدِ.

الشيخ: يعني: من حمد، نعم.

وَمُحَمَّدٌ مِنَ الْمُضَاعِفِ لِلْمُبَالَغَةِ، فَهُوَ الَّذِي يُحْمَدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُحْمَدُ غَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ؛ وَلِهَذَا وَالله أَعْلَمُ سُمِّيَ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ، لِكُثْرَةِ الْخَسَالِ الْمُحْمُودَةِ الَّتِي وُصِّفَ بِهَا هُوَ وَدِيْنُهُ وَأَمَّتُهُ فِي التَّوْرَاةِ، حَتَّى تَمَّتِي مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ.

الشيخ: ويقال لأمة: الحمادون؛ لكثرة حمدتهم، هي أمة محمدٍ ﷺ؛ لكثرة حمدتهم لله، وثنائهم عليه، وشكرهم إياه، يعني: أهل الإيمان والتقوى، أللهم الله جده عبد المطلب أن يسميه: محمدًا، لما علم الله في سابق علمه أنه قدره أنه يكوننبيًّا كريماً، وأنه عظيم الخصال، وكثير الخير، حسن العمل عليه الصلاة والسلام، فسمي: محمدًا.

وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بِشَوَاهِدِهِ هُنَاكَ، وَبَيْنَا غَلَطَ أَبِي القَاسِمِ السُّهِيْلِيَّ؛ حَيْثُ جَعَلَ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ، وَأَنَّ اسْمَهُ فِي التَّوْرَاةِ: أَحْمَدُ.

وَأَمَّا أَحْمَدُ: فَهُوَ اسْمٌ عَلَى زَنَةِ أَفْعَلِ التَّقْضِيلِ، مُشْتَقٌ أَيْضًا مِنَ الْحَمْدِ، وَقَدْ اخْتَافَ النَّاسُ فِيهِ: هَلْ هُوَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ أَوْ مَفْعُولٍ؟

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هُوَ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ، أَيْ: حَمْدُهُ لِلَّهِ أَكْثَرُ مِنْ حَمْدِ غَيْرِهِ لَهُ، فَمَعْنَاهُ: أَحْمَدُ الْحَامِدِينَ لِرَبِّهِ.

الشيخ: يعني صيغة تقضيل، يعني أنه أحمد من غيره، مثلما يقال: أفضل من غيره، وأكرم من غيره، يعني: أكثر حمدًا لله من غيره، على جعله من الفاعل من الحمد الذي هو فاعل: حامد، فيكون من باب كثرة فعله الخير، وحمده لربه جلَّ وعلا، فهو محمد بما يحمد الناس من خصال الخير، ويُثنى عليه به، وهو في نفسه حامد لله، يعني: كثير الحمد لله والثناء عليه.

وَرَجَحُوا هَذَا الْقَوْلَ بِأَنَّ قِيَاسَ أَفْعَلِ التَّقْضِيلِ أَنْ يُصَاغَ مِنْ فِعْلِ الْفَاعِلِ، لَا مِنَ الْفِعْلِ الْوَاقِعِ عَلَى الْمَفْعُولِ، قَالُوا: وَلِهَذَا لَا يُقَالُ: مَا أَنْزَبَ زَيْدًا، وَلَا: زَيْدٌ أَنْزَرَ بِمِنْ عَمْرِو، بِاعتِبَارِ الضَّرْبِ الْوَاقِعِ عَلَيْهِ، وَلَا: مَا أَشْرَبَهُ لِلْمَاءِ، وَأَكَلَهُ لِلْخُبْزِ، وَنَحْوِهِ.

قَالُوا: لِأَنَّ أَفْعَلَ التَّقْضِيلِ وَفِعْلَ التَّعْجِيبِ إِنَّمَا يُصَاغُانِ مِنَ الْفِعْلِ الْلَّازِمِ؛ وَلِهَذَا يُقَدَّرُ نَفْلُهُ مِنْ "فَعَلَ" وَ"فَعِلَّ" الْمَفْسُوحُ الْعَيْنُ وَمَكْسُورُهَا، إِلَى "فَعُلَّ" الْمَضْمُومُ الْعَيْنُ.

قَالُوا: وَلِهَذَا يُعَذَّى بِالْهَمْزَةِ إِلَى الْمَفْعُولِ، فَهَمْزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ، كَقُولُكَ: مَا أَظْرَفَ زَيْدًا، وَأَكْرَمَ عَمْرًا، وَأَصْلَهُمَا مِنْ ظَرْفٍ وَكُرْمًا.

قَالُوا: لَأَنَّ الْمُتَعَجَّبَ مِنْهُ فَاعِلٌ فِي الْأَصْلِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِعْلُهُ غَيْرُ مُتَعَدِّدٍ.

قَالُوا: وَأَمَّا تَحْوُ: مَا أَضْرَبَ زَيْدًا لِعَمْرٍ، فَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ "فَعَلَ" الْمَفْتُوحِ الْعَيْنِ إِلَى "فَعَلَ" الْمَضْنُومِ الْعَيْنِ، ثُمَّ عُدَّيَ وَالْحَالَةُ هَذِهِ بِالْهَمْزَةِ.

قَالُوا: وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَحِينُهُمْ بِاللَّامِ، فَيَقُولُونَ: مَا أَضْرَبَ زَيْدًا لِعَمْرٍ، وَلَوْ كَانَ بِأَقِيمَا عَلَى تَعْدِيَةِ لَقِيلٍ: مَا أَضْرَبَ زَيْدًا عَمْرًا؛ لَأَنَّهُ مُتَعَدِّدٌ إِلَى وَاحِدٍ بِنَفْسِهِ، وَإِلَى الْآخَرِ بِهَمْزَةِ التَّعْدِيَةِ، فَلَمَّا أَنْ عَدَّهُ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهَمْزَةِ التَّعْدِيَةِ عَدَّهُ إِلَى الْآخَرِ بِاللَّامِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمْ أَنْ قَالُوا: إِنَّهُمَا لَا يُصَاغِانُ إِلَّا مِنْ فِعْلِ الْفَاعِلِ، لَا مِنْ الْفِعْلِ الْوَاقِعِ عَلَى الْمَفْعُولِ.

وَنَازَ عَهُمْ فِي ذَلِكَ آخَرُونَ، وَقَالُوا: يَجُوزُ صَوْغُهُمَا مِنْ فِعْلِ الْفَاعِلِ، وَمِنَ الْوَاقِعِ عَلَى الْمَفْعُولِ، وَكُثْرَةُ السَّمَاعِ بِهِ مِنْ أَبْيَنِ الْأَدَلَّةِ عَلَى جَوَازِهِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: مَا أَشْغَلَهُ بِالشَّيْءِ، وَهُوَ مِنْ شُغْلِ فَهُوَ مَشْغُولٌ.

وَكَذِلِكَ يَقُولُونَ: مَا أَوْلَعَهُ بِكَذَا، وَهُوَ مِنْ أُولَئِعِ بِالشَّيْءِ فَهُوَ مُولَعٌ بِهِ، مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ لَيْسَ إِلَّا.

وَكَذِلِكَ قَوْلُهُمْ: مَا أَعْجَبَهُ بِكَذَا، فَهُوَ مِنْ أَعْجَبِ بِهِ.

وَيَقُولُونَ: مَا أَحَبَّهُ إِلَيَّ، فَهُوَ تَعْجِبٌ مِنْ فِعْلِ الْمَفْعُولِ، وَكُونِهِ مَحْبُوبًا لَكَ. وَكَذَا: مَا أَبْغَضَهُ إِلَيَّ، وَأَمْقَطَهُ إِلَيَّ.

وَهَاهُنَّا مَسْأَلَةً مَشْهُورَةً ذَكَرَهَا سَيِّدُهُمْ، وَهِيَ أَنَّكَ تَقُولُ: مَا أَبْغَضَنِي لَهُ، وَمَا أَحِبَّنِي لَهُ، وَمَا أَمْقَطَنِي لَهُ؛ إِذَا كُنْتَ أَنْتَ الْمُبِغضُ الْكَارِهُ، وَالْمُحِبُّ الْمَاقِتُ، فَتَكُونُ مُتَعَجِّبًا مِنْ فِعْلِ الْفَاعِلِ، وَتَقُولُ: مَا أَبْغَضَنِي إِلَيْهِ، وَمَا أَمْقَطَنِي إِلَيْهِ، وَمَا أَحِبَّنِي إِلَيْهِ: إِذَا كُنْتَ أَنْتَ الْبَغِيضُ الْمَمْقُوتُ، أَوِ الْمَحْبُوبُ، فَتَكُونُ مُتَعَجِّبًا مِنَ الْفِعْلِ الْوَاقِعِ عَلَى الْمَفْعُولِ، فَمَا كَانَ بِاللَّامِ فَهُوَ لِلْفَاعِلِ، وَمَا كَانَ بِ"إِلَى" فَهُوَ لِلْمَفْعُولِ.

وَأَكْثَرُ النَّحَاةِ لَا يُعَلِّلُونَ بِهَذَا، وَالَّذِي يُقَالُ فِي عِلْتَهِ وَاللهُ أَعْلَمُ: إِنَّ اللَّامَ تَكُونُ لِلْفَاعِلِ فِي الْمَعْنَى، نَحْنُ قَوْلُكَ: لِمَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: لِزَيْدٍ، فَيُؤْتَى بِاللَّامِ.

وَأَمَّا إِلَى "فَتَكُونُ لِمَفْعُولٍ فِي الْمَعْنَى، فَتَقُولُ: إِلَى مَنْ يَصِلُ هَذَا الْكِتَابُ؟ فَتَقُولُ: إِلَى عَبْدِ اللَّهِ".

وَسِرُّ ذَلِكَ: أَنَّ الَّلَامَ فِي الْأَصْلِ لِلْمُلْكِ وَالْإِخْتِصَاصِ، وَالإِسْتِحْقَاقُ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْفَاعِلِ الَّذِي يَمْلِكُ وَيَسْتَحْقُ، وَإِلَى "لَا تَهَاوِي الْغَايَةُ، وَالْغَايَةُ مُتَنَاهٌ مَا يَقْضِيهِ الْفِعْلُ، فَهِيَ بِالْمَفْعُولِ أَلْيُقُ؛ لِأَنَّهَا تَمَامُ مُقْتَضَى الْفِعْلِ".

وَمِنَ التَّعَجُّبِ مِنْ فِعْلِ الْمَفْعُولِ قَوْلُ كَعْبَ بْنَ زَهْرَةَ فِي النَّبِيِّ ﷺ:

فَأَهُوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إِذْ وَقَيْلَ إِنَّكَ مَحْبُوسٌ
وَمَفْقُولٌ أَكْلَمُهُ

مِنْ خَادِرٍ مِنْ لَيْوَثِ الْأَسْدِ بِبَطْنِ عَرَّ غِيلٌ دُونَهُ
غِيلٌ مَسْكُنُهُ

فَأَخْوَفُ هَاهُنَا مِنْ خِيفَ، فَهُوَ مَخْوَفٌ، لَا مِنْ خَافَ.

وَكَذِلِكَ قَوْلُهُمْ: مَا أَجَنَّ رَيْدًا، مِنْ جُنَّ، فَهُوَ مَجْنُونٌ، هَذَا مَذْهَبُ الْكُوفِيِّينَ وَمَنْ وَاقَفَهُمْ.

قَالَ الْبَصْرِيُّونَ: كُلُّ هَذَا شَادًّا لَا يُعَوِّلُ عَلَيْهِ، فَلَا نُشَوِّشُ بِهِ الْقَوَاعِدَ، وَيَجِبُ الْإِقْتِصَارُ مِنْهُ عَلَى الْمَسْمُوعِ.

قَالَ الْكُوفِيُّونَ: كُثْرَةُ هَذَا فِي كَلَامِهِمْ نُثَرَّا وَنَظَمَّا يَمْنَعُ حَمْلَهُ عَلَى الشُّدُودِ؛ لِأَنَّ الشَّادَّ مَا خَالَفَ اسْتِعْمَالَهُمْ وَمُطْرَدَ كَلَامِهِمْ، وَهَذَا غَيْرُ مُخَالِفٍ لِذَلِكَ.

قَالُوا: وَأَمَّا تَقْدِيرُكُمْ لِرُزُومِ الْفِعْلِ وَنَفْلَهُ إِلَى "فَعْلٍ" فَتَحْكُمُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَمَا تَمْسَكُتُمْ بِهِ مِنَ التَّعْدِيَةِ بِالْهَمْزَةِ إِلَى آخِرِهِ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ فِيهَا كَمَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ، وَالْهَمْزَةُ فِي هَذَا النَّيَاءِ لَيْسَتْ لِلتَّعْدِيَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ لِالدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى التَّعَجُّبِ وَالتَّقْضِيَّلِ فَقَطْ، كَأَلْفِ "فَاعِلٍ"، وَمِيمِ "مَفْعُولٍ" وَوَاوِهِ، وَتَيَاءِ الْإِقْتَعَالِ وَالْمُطَاؤَعَةِ، وَنَحْوَهَا مِنَ الزَّوَادِ الَّتِي تَلْحُقُ الْفِعْلَ الْثَّلَاثِيَّ لِبَيَانِ مَا لِحَقَّهُ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مُجَرَّدِهِ، فَهَذَا هُوَ السَّبُبُ الْجَالِبُ لِهَذِهِ الْهَمْزَةِ، لَا تَعْدِيَةُ الْفِعْلِ.

قَالُوا: وَالَّذِي يَذْلِلُ عَلَى هَذَا أَنَّ الْفِعْلَ الَّذِي يُعَذَّى بِالْهَمْزَةِ يَجُوزُ أَنْ يُعَدَّ بِحَرْفِ الْجَرِّ وَبِالْتَّضْعِيفِ، نَحْوُ: جَلَسْتُ بِهِ وَاجْلَسْتُهُ، وَقُفْتُ بِهِ وَأَقْمَثْتُهُ، وَنَظَّأْتُهُ، وَهُنَّا لَا يَقُولُ مَقَامُ الْهَمْزَةِ غَيْرُهَا، فَعَلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ لِلتَّعْدِيَةِ الْمُجَرَّدةِ

أيضاً، فإنها تجتمع باء التعديّة، نحو: أَكْرَمْ بِهِ، وَأَحْسَنْ بِهِ، وَلَا يُجْمَعُ عَلَى الفعل بين تعديتين.

وأيضاً فإنهم يقولون: ما أَعْطَاه لِدَرَاهِمْ، وَأَكْسَاه لِتِيَابٍ. وهذا من أخطئ وكسا المتعدي، ولا يصح تقدير نفه إلى "عطوه": إذا تناول، ثم أدخلت عليه همزة التعديّة؛ لفساد المعنى، فإن التّعجّب إنما وقع من إعطائه، لا من عطوه، وهو تناوله، والهمزة التي فيه همزة التّعجّب والتفضيل، وحذفت همزة التي في فعله، فلا يصح أن يقال: هي للتعديّة.

قالوا: وأما قولكم: إنّه عدّي باللام في نحو: ما أضرَبَه لِزِيْدٍ .. إلى آخره، فالإثبات باللام هاهنا ليس لما ذكرتم من لزوم الفعل، وإنما أتي بها تقوية له لما ضاعف بمنعه من التّصرّف، واللزم طريقة واحدة خرج بها عن سُنّة الأفعال، فضاعف عن اقتضائه وعمله، فقوى باللام، كما يقوى بها عند تقدّم معموله عليه، وعند فرع عيته، وهذا المذهب هو الرّاجح كما تراه.

فلنرجع إلى المقصود فنقول: تقدير أَحْمَدَ على قوله الأولين: أَحْمَدُ النَّاسِ لِرَبِّهِ، وعلى قوله هؤلاء: أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِأَنْ يُحْمَدَ، فيكون كَمْحَمَدٌ في المعنى، إلا أن الفرق بينهما أن "مُحَمَّداً" هو كثير الخصال التي يُحْمَدُ عليها، و"أَحْمَدُ" هو الذي يُحْمَدُ أَفضلِ ممَّا يُحْمَدُ غيره، فمُحَمَّدٌ في الكثرة والكميّة، وأَحْمَدُ في الصفة والكميّة، فيستتحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره، وأفضل مما يستحق غيره، فيُحْمَدُ أكثر حمداً وأفضل حمداً حمدة البشر.

فالإنسان واقعان على المفعول، وهذا أبلغ في مدحه، وأكمل معنى. ولو أردت معنى القاعيل لسمّي الحماد، أي: كثير الحمد، فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه، فلو كان اسمه أَحْمَدْ باعتبار حمده لربه لكان الأولى به الحماد، كما سميته بذلك أمّه.

وأيضاً فإن هذين الأسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائصه المحمودة التي لا جله استحق أن يسمى: مُحَمَّداً، وأَحْمَدُ وهو الذي يُحْمَدُ أهل السماء وأهل الأرض، وأهل الدنيا وأهل الآخرة؛ لكثرة خصائصه المحمودة التي تفوق عد العاديين، وإحساناته المحسّنات، وقد أشربنا هذا المعنى في كتاب الصلاة والسلام عليه ﷺ.

الشيخ: ولا منفاة في الحقيقة، فهو عليه الصلاة والسلام له الخصال الحميدة التي يحمد عليها، وسمى: مُحَمَّداً؛ لكثرتها، ولهم الخصال الحميدة التي يحمد

بها رَبِّهِ، فهو محمدٌ، وهو أَحْمَدُ النَّاسِ فِي نَفْسِهِ؛ لِكَثْرَةِ حَمْدِهِ لِرَبِّهِ، وَثَنَائِهِ عَلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ أَحْمَدُ مِنْ جَهَةِ الْمَعْنَى الْفَعْلِي أَيْضًا، وَأَنْ حَمْدُ غَيْرِهِ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ جَهَةِ الْكَمِيَّةِ، وَمِنْ جَهَةِ الْكِيفِيَّةِ، فَحَمْدُهُ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ حَمْدِهِ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَطْيَبُ، وَأَكْمَلُ، وَأَفْضَلُ مِنْ حَمْدِهِ لِغَيْرِهِ مِنْ حِيثِ الْكِيفِيَّةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى يَدِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ؛ مِنَ الدُّعَوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَبِبَيَانِ شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَالصَّبَرِ عَلَى الْأَذَى فِي ذَلِكَ، وَحِرْصَهُ عَلَى كُلِّ مَا فِيهِ سَعَادَةُ أُمَّتِهِ وَنِجَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَاهُنَا كَلِمَاتٍ يَسِيرَةً افْتَضَلَتْهَا حَالُ الْمُسَافِرِ، وَتَشَتَّتَ قُلُوبُهُ، وَتَقَرُّقُ هَمَمَتِهِ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَنُ، وَعَلَيْهِ التَّكَلُّعُ.

وَأَمَّا اسْمُهُ الْمُتَوَكِّلُ: فَفِي "صَاحِحِ الْبَخَارِيِّ" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو قَالَ: قَرَأْتُ فِي التَّوْرَةِ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ: "مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ، عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُهُ: الْمُتَوَكِّلُ، لَيْسَ بِقَاطِنٍ، وَلَا غَارِبٌ، وَلَا سَاحَابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَاتِ السَّيِّئَاتِ، بَلْ يَعْفُوْ وَيَصْفَحُ، وَلَنْ أَفْتَضَهُ حَتَّى أُقْبِلَ بِهِ الْمِلَّةُ الْعَوْجَاءُ، بِأَنَّ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُوَ أَحَقُ النَّاسِ بِهَذَا الْاسْمِ؛ لِأَنَّهُ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي إِقْمَانِ الدِّينِ تَوَكِّلًا لَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ غَيْرُهُ.

الشيخ: يعني: توكلًا كاملاً، وصبر على الأذى، وتوكل عليه ۶ حتى أظهر الله دينه، وأتم نعمته، وأكمل لأمته هذا الدين العظيم.

وَأَمَّا الْمَاجِيُّ، وَالْحَاشِرُ، وَالْمَفَقِيُّ، وَالْعَاقِبُ: فَقَدْ فُسِّرَتْ فِي حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ؛ فَالْمَاجِيُّ: هُوَ الَّذِي مَحَا اللَّهَ بِهِ الْكُفُرَ، وَلَمْ يَمْحُ الْكُفُرَ بِأَحَدٍ مِنَ الْخُلُقِ مَا مُحِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّهُ بَعَثَ وَأَهْلَ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ إِلَّا بَقَائِمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهُمْ مَا بَيْنَ عَبَادَاتِ أُوْثَانِ، وَيَهُودَ مَغْضُوبٍ عَلَيْهِمْ، وَنَصَارَى ضَالِّينَ، وَصَائِبَةٌ دَهْرِيَّةٌ لَا يَعْرِفُونَ رَبًّا وَلَا مَعَادًا، وَبَيْنَ عَبَادَاتِ الْكَوَافِرِ، وَعَبَادَاتِ النَّارِ، وَفَلَاسِفَةٌ لَا يَعْرِفُونَ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ.

الشيخ: يعني: هذه حال الناس عند بعثة ﷺ: قد ملؤوا الأرض كفرًا وضلالًا: ما بين يهود مغضوب عليهم، ونصارى ضاللين، وعباد أوثان، وعباد كواكب ونيران، وغير ذلك، قد ملؤوا الأرض فلم يبقَ على دين الأنبياء إلا قلائل من أهل الكتاب، مثلما في الحديث: "إِلَّا بَقَائِمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ"، بعد مجيء هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أظهر الله به الإسلام، ومحابيه الكفر عن الجم الغفير، والعدد الكبير من سكان الأرض، حتى انتشر دين الله، وظهر دين

الله في الآفاق، وصدق عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَلَامًا أنه هو الماحي الذي محا الله به الكفر، يعني: محا به معظمه في وقته وبعد وقته، إلى أوقات كثيرة، ثم جاءت غربة الإسلام بعد ذلك.

وَفَلَاسِفَةٌ لَا يَعْرِفُونَ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا يُقْرُونَ بِهَا، فَمَحَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِرَسُولِهِ ذَلِكَ حَتَّى ظَهَرَ دِينُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ، وَبَلَغَ دِينُهُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَسَارَتْ دَعْوَتُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي الْأَقْطَارِ.

وَأَمَّا الْحَاشِرُ: فَالْحَашِرُ هُوَ الضَّمُّ وَالْجَمْعُ، فَهُوَ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِهِ، فَكَانَهُ بُعْثَةً لِيُحْشِرَ النَّاسَ.

وَالْعَاقِبُ: الَّذِي جَاءَ عَقِبَ الْأَنْبِيَاءِ.

الشيخ: لأنَّ قيام الساعة بعده بقليل؛ لأنَّه نبي الساعة، ليس بعده نبي، وليس بعده دين آخر، فدينه آخر الأديان، وهو آخر الأنبياء، فالناس يُحشرون بعده، يعني: تقوم الساعة بعده، على إثره عليه الصلاة والسلام ما بين ذلك وبين قيامها، لكنه بالنسبة إلى ما مضى قليل؛ ولهذا شبه بقایا هذه الأمة وما بقي لها من الدين والبقاء في الدين متلماً بين وجود الشمس على أطراف الجدران والعتبان إلى غروبها، يعني: مدة يسيرة، وقد ذهب معظم الدنيا، وما بقي منها إلا اليسير.

فَلَيْسَ بَعْدَهُ تَبِيٌّ، فَإِنَّ الْعَاقِبَ هُوَ الْآخِرُ، فَهُوَ بِمَنْزَلَةِ الْخَاتَمِ؛ وَلَهُ ذَلِكَ سُمِّيَ الْعَاقِبُ عَلَى الإِطْلَاقِ، أَيْ: عَقِبَ الْأَنْبِيَاءِ، جَاءَ بِعِقِبِهِمْ.

وَأَمَّا الْمُفْقَدُ فَكَذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي قَفَى عَلَى آثَارِ مَنْ تَقَدَّمَهُ، فَقَفَى اللَّهُ بِهِ عَلَى آثَارِ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ، وَهَذِهِ الْفَظْلَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفَقْدِ، يُقَالُ: قَفَاهُ يَقْفُوهُ: إِذَا تَأَخَّرَ عَنْهُ، وَمِنْهُ: قَافِيَةُ الرَّأْسِ، وَقَافِيَةُ الْبَيْتِ، فَالْمُفْقَدُ: الَّذِي قَفَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ فَكَانَ خَاتَمَهُمْ وَآخِرَهُمْ.

س:؟

ج: ورد نعم، لكن صحة ذلك محل نظر.







